دعوة ثانية "السباق مع الزمن

بقلم: د. روز ماري صايغ

تهجير عام ١٩٤٨

تهجير عام لأحد أعظم أعمال التاريخ الشفوي الذي حمل عنوان "دم أسبانيا"، وهو كتاب حول الحرب الأهلية الأسبانية بين أعوام ١٩٣٦ – ١٩٣٩، كتب روي فوستر: " توضيح الأعمال التاريخية الهامة.. معظم معالم ذلك النزاع، وسيبدو الأمل بإضافة أي جديد للصورة العامة في تلك الفترة بلا جدوى. ولكن في إطار المعرفة العامة أو حتى التفصيلية، تبقى بعض الجوانب غير واضحة تماماً، منها الجانب الموضوعي وهو طيف من التجارب الحياتية للناس الذين شاركوا في الأحداث١.

وما زال المؤرخون يصفون الأحداث التي دارت في فلسطين في فترة ١٩٤٧ –١٩٤٨ بمصطلحات تاريخية تقليدية، مثل الحرب، الهزيمة وغيره. وهذا تقديم خاطئ أساساً، لما وقع عام ١٩٤٨ والذي وصفه المؤرخ الإسرائيلي إيلان بابيه ب"التطهير العرقي" وفي هذا السياق، برزت أبحاث ودراسات نور مصالحة حول "الترانسفير" في العقيدة والممارسة الصهيونيتين٢ ولغاية الآن، يبقى الأمر المفقود تماماً هو: تجربة الفلسطينيين العاديين التي مروا بها أثناء ترحيلهم عام ١٩٤٨. وعادة ما يتم التطرق إلى الفلسطينيين المهجرين على أنهم مجرد إحصائية، وليسوا طرفاً سياسياً، أو حملة لأحداث تاريخية، فجوة تفصل هذا المقام بين ما يعنيه الفلسطينيين المهجرين عام١٩٤٨، وكيفية تقديمهم من قبل المؤرخين. يقوم العمل على التاريخ الشفوي الفلسطيني لغاية الآن، من قبل بعض الباحثين المستقلين والمنظمات غير الحكومية، وذلك حتى لا يبقى المشهد خالياً تماماً من تلك الأبحاث. ومع تلك الأبحاث ومع ذلك تحتاج الأعمال الفردية إلى التواصل مع بعضها لكي تأتي إلى المشهد بإضافات جديدة، وتعبئ الفجوات الموجودة وتبرز الأسئلة الهامة. يتطلب ذلك تعاوناً بين المؤسسات الموجودة في مختلف مواقع الشتات، والمجموعات المحلية، والباحثين المستقلين إننا بحاجة ماسّة إلى التفكير في السؤال الأساسي، والذي قد يسهم في خدمة مستقبل المؤرخين. فهنالك الكثير من جوانب طرد الفلسطينيين غير الواضحة، ومن الأمثلة على ذلك.

أولا: التراكمات التي أدت إلى الطرد التي أدت إلى الطرد والتي ابتدأت في أواخر عام ١٩٤٧، أي ما قبل الخطط الهجومية الصهيونية عام ١٩٤٨، والتجهيزات التي كان بإمكان الناس العاديين ملاحظتها كمحلات الاستطلاع الصهيونية، واستكشاف الريف الفلسطيني، كذلك الأسلحة والأساليب التي استخدمت في مختلف مراحل الصراع الذي دام لمدة عام (مثلاً، الهجمات الجوية وكيفية وتاريخ استخدامها)، وكذلك استخدام الحرب النفسية والإشاعات، والدعاية السياسية الإذاعية، واستخدام الجواسيس، واستخدام المخاتير اليهود لنقل مختلف الرسائل.

ثانياً: هل استخدمت القوات الصهيونية/ الإسرائيلية نمطاً موحداً للهجوم على القرى، كما اقترح أحد الباحثين في منطقة الجليل٣؟ وهل كان هذا النمط محصوراً في منطقة واحدة أو في مرحلة واحدة من مراحل الطرد؟

ثالثاً: تنوع الأساليب واختلاف كثافة الطرد في مختلف المناطق، وبإمره القادة المختلفين، ثم أثناء المراحل المختلفة مثل الطرد أثناء الهدنة.

رابعاً: المجازر وحسب المؤرخ ميشيل بالامبو٤ تزايدت الوحشية الإسرائيلية في المرحلتين النهائيتين للحرب. هنالك حاجة لتعميم المعرفة بالمذابح التي ما زالت غير معروفة على نطاق واسع، مثل الصفصاف وعيلبون والطنطورة ومجد الكروم والجش وعرب صبيح (بالقرب من كفر كنا) والدوايمة وبير السبع ومناطق أخرى من النقب٥.

خامساً: الاغتصاب تطرق بالمبو إلى عدد من الشهادات على حوادث اغتصاب، مع أن هذا أحد الموضوعات التي نادراً ما بحث فيها المؤرخون الفلسطينيون لغاية الآن، ما عدا فيما يتعلق

بمذبحة دير ياسين. فما كشفت عنه صحيفة هآرتس مؤخراً، عن حالة قتل واغتصاب فتاة بدوية سنة ١٩٤٩، يجب أن ينبهنا للحاجة لإجراء المزيد من الأبحاث من جهة، وإلى أهمية الشهادات الإسرائيلية من جهة ثانية.
سادساً: منع اللاجئين من العودة. ركّز البحث الفلسطيني على تدمير القرى، مع العلم أن وسائل أخرى قد استخدمت، مثل قذف أماكن تواجد اللاجئين بالمتفجرات، وزرع الألغام في البيوت.
سابعاً: اختلاف ردود فعل الفلسطينيين. فمثلاً لماذا اتخذ سكان نفس المنطقة قرارات مختلفة، حيث قرر بعضهم الهرب فيما قرر البعض البقاء؟ وإلى أين توجه الذين غادروا فلسطين؟ إلى أين ذهب الناس؟ ولماذا؟
ثامناً : الخبرات المبكرة لهؤلاء الذين بقوا في ما أصبحت إسرائيل . لقد تم بذل بعض الجهد في هذا المجال من قبل باحثين منفردين٦.
تاسعاً: لم تتضمن معظم الأعمال التي أنجزت أشخاصا أصليين من القرى مدار البحث، ما عدا أعمال بعض الباحثين المنفردين في القدس، ويافا وحيفا ونابلس. هنالك حاجة لملء الفراغات المعرفية، من خلال توثيق مدى أوسع من القطاعات الاجتماعية تحتاج أن نضيف إلى السجلات ذكريات النساء عن الهجرة وما بعدها، والتي تختلف بالتأكيد عن ذكريات الرجال، وكذلك من كانوا سكان المدن بكافة طبقاتهم ومستوياتهم، والبدو من مختلف المناطق، والأقليات من مختلف الأطياف، مثل البهائيين والأرمن، وكذلك أسرى الحرب وأسرى معسكرات العمل، وكذلك المكفوفين أو أصحاب الإعاقات الأخرى٧ ولاجئين كانوا أطفالاً أثناء هجرتهم٨.
وما زال البحث في السنة الأولى التي تلت سنة ١٩٤٨، حقلاً لم تشمله الدراسات الفلسطينية، علماً بأن الذكريات الفردية لدراسات خاصة بقطاعات معينة٩ قد غطت جزءاً منها ومن بين النقاط التي لا بد من استعراضها:
أولاً: أنماط الاستقرار في الشتات، ما هي القوى والدوافع التي أثرت في حركة اللاجئين؟ ماذا كانت سياسات الحكومات المضيفة؟ وما هو مدى تحكمهم في اللاجئين وأماكن تجمعهم؟
ثانياً:كيف تأثرت العلاقات الاجتماعية للاجئين بالشتات والفرقة (الانفصال)؟ كيف أعادت العائلات والمجتمعات الصغيرة التي تشتت الاتصال ببعضها؟
ثالثاً: لماذا ساد الصمت الجماعي أوساط الفلسطينيين فيما يتعلق بالمذابح، وفي بعض حالات الاغتصاب الذي رافق عملية الطرد ؟ لماذا تم تذكر مذبحة دير ياسين ونسيان المذابح الأخرى؟
رابعا: كيف تم الحفاظ على صلات اللاجئين بفلسطين في السنوات الأولى؟ وكيف تمكن البعض من العودة؟ وكيف تمكن البعض من البقاء؟ وكيف طردت البقية؟
إن هذه الأسئلة بالإضافة إلى مجموعة كبيرة لا تزال تنتظر أجوبة شافية، حول تدمير المجتمع الفلسطيني في وطنه، وإعادة بنائه في الشتات أو تحت الاحتلال.

السباق مع الزمن:

يطرح العدد الآخذ بالتضاؤل للفلسطينيين الذين ما زالوا على قيد الحياة، ممن يتذكرون مرحلة الانتداب البريطاني أو التهجير عام ١٩٤٧ – ١٩٤٨، أو الفترة التي تلت النكبة مباشرة، أهمية خاصة لمسألة توثيق قصصهم. كان صالح عبد الجواد مصيباً عندما أسمى هذا المشروع "بسباق مع الزمن".
فالتقديرات تشير إلى أن عدد الفلسطينيين الذين زادت أعمارهم عن ٧٠ عاما في عام ٢٠٠٣ يقترب من حوالي ٢% من مجموع السكان، (مع وجود فوارق بسيطة بين منطقة وأخرى). وهذا يجعل مجمل تعدادهم حوالي ٢٠٥ آلاف، يعيشون في الأردن وسوريا ولبنان والضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين، وكذلك في إسرائيل١٠. يبدو هذا الرقم كبير إلى أن نتذكر أنه يتناقص بشكل يومي. ليس هنالك أي جدل، حول مسألة أننا نعيش الآن آخر السنوات التي يمكننا فيها توثيق قصص كبار السن من الفلسطينيين. هذا هو الوقت الذي يجب أن نعزز فيه الصلات، ليس

فقط بين منظمات البحث، ولكن أيضا في أوساط المجتمع، وذلك لتجسيد أهمية تنسيق العمل في مجال التاريخ الشفوي. وفي خضم العجالة لإنجاز هذا المشروع، يجب أن لا ننسى هدفه السياسي وهو حماية حقوق اللاجئين، الآن وفي المستقبل.